19

رحلة جاسر . . .

قال سندباد :

ثم جلس جاسر يقص علينا أنباء رحلته فقال :

أتذْكر يا سندباد رسالة كتبتها إليك منذ أكثر من عام، وقلتُ لك فيها إن أباك . . .

قلت : نعم، وقد أشعلتْ تلك السطور القليلة في قلبي نارًا وهاجت في نفسي عاصفة من الفكر؛ فلم أجد سبيلًا للخروج من حيرتي غير الاستعداد لرحلة جديدة، رَجوْت أن تكون آخر رحلاتي فأهتدي إلى مكان أبي . . .

قال جاسر : الحمد الله، فقد استجاب لرجائك فجعلها آخر رحلاتك، وهداك إلى مكان أبيك . .

ثم التفت إلى أبي وقال : واستجاب الله لرجاء أبيك، فجمع شمله بأحبابه جميعًا؛ ليستقر بعد قلق ويهدأ بعد عناء . . .

ولمحت دمعتين تبرقان في عيني أبي ثم تقطران على خديه . . .

واستطرد جاسر يقول : وقد خمَّنتُ أنك ستعود إلى عَدن، لتبدأ البحث منها؛ ومكثتُ فيها أسابيع انتظر مقدمَك؛ وكان أبوك لم يزل – كعادته – يتنقَّل بين موانى البحر والمحيط للتجارة، وأنا أتتبع حركاته حيث يذهب، لأصحبك إليه حين تجئ؛ لكنك لم تجئ . . .

وقلقت، وكان قلقي من أجلك، ومن أجل أختي أم شمس زاد ومن أجل شمس زاد نفسها . . .

وكان في ميناء عدن سفينة على نية الإبحار إلى وطنك، فركبتُها، وساعدتْنا الريح فوصلنا بعد أيام قليلة؛ ولكني لم ألقك هناك؛ وعلمتُ أنك سافرت منذ أسابيع إلى حيث لا يدري أحد . . .

وأقمت في ضيافة عمتك أيامًا سعيدة، لقيتُ فيها من كرمها ومن كرم قمر زاد وزوجها ما لا أنساه . . .

وعرفتُ في تلك الأيام صديقك صفوان، فعرفتُ فتىً كريمًا شهمًا، يفرض على كل من يعرفه أن يحبه ويحترمه؛ فلما تقدم إليَّ يخطب ابنة أختي شمس زاد لم أتردد في القبول؛ فقد كانت هي وأمها – مثلي – يحبانه ويحترمانه !

ثم تهيأتُ للرحلة إلى عدن . . .

وصمت جاسر برهة وهو يتصفَّح وجوهنا، ثم استطرد : وكان صفوان – منذ صار صهرًا لنا – يُصر على أن يصحبني في الرحلة إلى عدن، وإلى ما وراء عدن، للبحث عن صديقه سندباد وعن صهره شهبندر . . .

وأصر بلخير مثل إصرار صفوان على أن يصحبنا؛ وكانت قمر زاد تحمل في بطنها جنينًا، فلما علمت بنيَّة زوجها على الرحيل معنا خطرتْ في نفسها وساوس وتوهَّمتْ أوهامًا فأصرَّت على أن تكون معنا كذلك ليرى وليدها أباه بلخير أول من يرى . . .

وكادت شمس زاد تقول مثل قول قمر زاد وكانت مثلها تحمل جنينًا؛ ولكن أمها قالت لها " ولمن تتركين عمتك مشيرة وتتركيني ؟ "

فرضيت أن تبقى؛ وبقي معهن بهلول . . .

فلما كان اليوم المحدد لبدء الرحلة، حضر هلهال زائرًا، فعلم بنيتنا؛ فأصر على صحبتنا . . .

ووصلنا إلى عدن؛ وكنت أقدر أن ألقاك فيها أو أسمع خبرًا عنك؛ ولكني لم ألقك ولم أسمع أخبارًا عن شهبندر . . .

وأحسست قمر زاد بآلام المخاض في عدن، ثم ولدتْ خيرًا . . . وكان يوم ميلاده أشق يوم عليَّ؛ فقد علمت في ذلك اليوم أن السفينة التي كان يركبها شهبندر قد حطمتها الأمواج بالقرب من جزيرة النسانيس . . .

وكتمت بعض الخبر عن أصحابي وكشفتُ بعضه؛ إشفاقًا عليهم من القلق والمخاوف . . .

وتهيأنا جميعاً للرحلة إلى جزيرة النسانيس لإنقاذ شهبندر؛ ولقينا في الطريق أهوالًا قبل أن نصل إليها؛ ولكن الهول الذي كنا نتوقع أن نلقاه في جزيرة النسانيس كان – في تقديري – أشد من كل هول لقيناه في الطريق؛ فأعددتُ نفسي وأصحابي لكل طارئ . . .

وبلغنا شاطئ الجزيرة في أول الليل، فأرسينا سفينتنا، وهبطتُ أنا وصفوان على حذر وخوف؛ ولم نلق في طريقنا غير نسناس واحد فتربصنا له حتى صار قريبًا منا، فوثبنا إليه . . .

فقاطعه شهبندر قائلًا : ماذا فعلتم به ؟

قال جاسر : قبضنا عليه وسقناه إلى السفينة فربطناه في ساريتها، ثم عدنا إلى الشاطئ لنبحث عن أثر يدلنا عليك أو على أحد من أصحابك . . .

وقاطعه أبى مرة أخرى فقال وهو يتهيأ للقيام : أريد أن أرى ذلك النسناس !

قالت قمر زاد : لقد ذهب، فك رباطه ووثب في الماء، فلما استيقظنا في الصباح لم نجد له أثرًا قال أبى آسفًا : يا خسارة !

وتبادلنا نظرات، ثم استأنف جاسر حديثه فقال : ورأينا سفينة أخرى على الشاطئ مهيأةً للإبحار؛ فقوي أملنا في لقاء شهبندر وأصحابه، ولم نلبث أن رأيناكم، وكنتم نائمين والظلام من حولكم، فلم نعرفكم . . .

وخفنا أن تستيقظوا، فتنشب بيننا معركة في الظلام؛ وخفنا أن نترككم نيامًا فتسبقونا إلى الإبحار قبل أن نلقاكم ونتحدث إليكم؛ فرأينا أن نستولي على السفينة ونترككم نائمين؛ فإذا جاء الصباح جئناكم مستعدين . . .

ثم ربطنا سفينتكم بحبلٍ إلى سفينتنا، فسبحت بها إلى شاطئ بعيد ثم أرسينا السفينتين . . .

وأخذنا نفتش أمتعتكم في السفينة لنعرف بعض خبركم فعثرنا على صره فيها بعض ثياب سندباد . . .

قلت : قد عرفنا تمام القصة يا جاسر فشكر الله لكم هذا الفضل !

قال جاسر : ولكنك لم تعرف يا سندباد أن أكبر الفضل في العثور عليكم لنمرود؛ فهو الذي دلنا على مكانكم في ظلام الليل، وهو أول من لقيكم في ضوء الصبح !